الأستاذ الرئيس

الأمير مصطفى الشهابي

(١٨٩٣ — ١٩٦٨ م)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقيد العربية

الأستاذ الرئيس الأمير مصطفى الشهابي

نعى مجمع اللغة العربية بدمشق عصر يوم الإثنين في ١٥ صفر ١٣٨٨ هـ الموافق لـ ١٣ أيار (مايو) ١٩٦٨ م، رئيسه العلامة الأمير مصطفى الشهابي، كما نعاه مجمع القاهرة، فكان لنعيه الصدى الأليم في أرجاء الوطن العربي، إذ كان الفقيد الكبير علماً من أعلام العربية، تقدم صفوف حماة الفصحى المناضلين عنها، المرابطين على ثغورها المتصلة بالحضارة المعاصرة والعلم الحديث.

بدأ الفقيد حياته على فترة من الزمن دالت فيها دولة العرب، فتسربت الرطانة إلى لغة الناس، واستعجمت خلالها لغة الدواوين والعمال، حتى إذا ما تطلع الغيارى على الفصحى إلى من يحمل عبء الحفاظ على لغة القرآن، تقدم الفقيد وزملاء له عاقبين الطلائع من الرجال، فحملوا الأمانة ووفوا أمّ اللغات حقها عليهم، فكان وكانوا أعلام النهضة العربية الحديثة.

لقد ظل فقيدنا العظيم أكثر من نصف قرن يدافع عن سلامة العربية، ويعمل على إثرائها لتساير ركب الحضارة وتقوم بمتطلباتها، ولتفي بحاجات العلوم المستحدثة، حتى قضى، وهو وراء مكتبه، بعد أن دفع إلى المطبعة آخر مقال له لينشر في هذا العدد من مجلة مجمع دمشق، وبعد بضعة أيام فقط من آخر جلسة عقدها مجلس هذا المجمع، ولقد ظل الفقيد ما يقرب من تسع سنوات رئيساً له، فكان ثالث رؤسائه الأعلام المغفور لهم كرد علي ومردم بك.

★ ★ ★

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نسب الفقيد ونشأته ودراسته

ينتسب الفقيد إلى أمراء بني شهاب القرشيين المخزوميين الذين دخلوا بلاد الشام عند الفتح الإسلامي بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ، والذين حكموا جبل حوران في سنة ٥٦٨ هـ أيام الملك العادل نور الدين محمود زنكي ، ثم حكموا وادي التيم فلبنان حتى سنة ١٨٧٠ م على ما هو معروف في تاريخ الشام وتاريخ جبل لبنان والأسرة الشهابية .

ولد الفقيد في غرة شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٩٣ للميلاد (١٣١١ هـ) ، في بلدة حاصبيا مقر بني شهاب في وادي التيم في سفح جبل حرمون (الشيخ) اللبنانية ، وكانت من أعمال دمشق ، وفي حاصبيا أولاً ثم في بعلبك ، حيث انتقل أبوه الموظف في مالية ولاية سورية إليها ، تلقى الفقيد علومه الأولية ، ثم انتقل إلى دمشق سنة ١٩٠٥ م حيث دخل المدرسة البطريركية الكاثوليكية ومكث فيها سنتين ، يتلقى دروساً في العربية والفرنسية ومبادىء العلوم العصرية .

وفي سنة ١٩٠٧ م سافر الفقيد مع شقيقه الأكبر الشهيد الأمير عارف الشهابي (١) إلى الآستانة عاصمة الدولة العثمانية ، وفيها دخل مدرسة إعدادية

---

(١) ترجم الزركلي صاحب « الأعلام » الشهيد الشهابي كما يلي :

[عارف بن محمد سعيد بن جهجاه بن حسين ، من أمراء الأسرة الشهابية كاتب من الخطباء الشعراء ، من شهداء العرب صبراً في ديوان عاليه التركي .

ولد في حاصبيا (من أعمال دمشق) ـ ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٩ م ـ وتعلم في دمشق والآستانة ، وشارك في إنشاء « المنتدى الأدبي » في الثانية ، ونال شهادتي الحقوق والملكية ، وعاد إلى سورية ، فمارس بعض الأعمال الكتابية والادارية سنتين ، واستقال فاحترف المحاماة ، ودرّس التاريخ في إحدى المدارس الأهلية ، متطوعاً لبث المبادئ القومية في تلاميذها . ونشر مقالات كثيرة في =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فرنسية مكث فيها سنتين كان خلالها يدرس على شقيقه الطالب في المدرسة الملكية العالية ، اللغة العربية وآدابها وتاريخ العرب والإسلام ، حتى إذا ما أنهى الشقيق دراسته عاد مع أخيه إلى دمشق .

ودخل الفقيد في دمشق المدرسة السلطانية الثانوية (مكتب عنبر) ولبث فيها سنة ، فلما كانت سنة ١٩١٠ م ، اختارته جمعية أهلية ، ألفها أهل الفكر في دمشق ، واحداً من بعثة قررت إيفادها إلى فرنسة لمتابعة التحصيل العالي فيها ، فسافر وحصل بعد سنة دراسية واحدة على شهادة الدروس الابتدائية العليا من مدرسة مدينة Chalon - sur - Saône ، ثم دخل مدرسة غرينون Grignon الزراعية العليا وتابع دروسه فيها حتى حصل سنة ١٩١٤ م على شهادة (مهندس زراعي) . وعاد الفقيد صيف السنة المذكورة إلى الآستانة حيث نجح في فحص شهادة التعادل العثمانية ، وكانت نيران الحرب العالمية الأولى قد اندلعت ، فاضطر الفقيد إلى دخول المدرسة الحربية في العاصمة العثمانية مرشحاً لرتبة ضابط احتياط في المشاة ، ثم انتقل إلى مدرسة البرق والهاتف الحربية وتخرّج بعد ستة أشهر برتبة وكيل ضابط ، فعُين قائد فصيل في سرية البرق في مدينة القدس ، ثم نقل إلى دمشق ترجماناً في رهط الإشارة اللاسلكية ، وفيها حصل على رتبة ملازم ، وفي سنة ١٩١٦ م عين الفقيد قائداً لسريتين زراعيتين في

= جريدة « المفيد » البيروتية ، وكان توقيعه عليها « عبد الله بن قيس » ثم تولى تحريرها ، وأصبح شريكاً فيها ، وانتقل إلى بيروت ، ولما نشبت الحرب العامة (١٩١٤ م) عاد إلى دمشق ونقلت الجريدة إليها ، فلم يلبث أن أحسّ بشر الحكومة ، وكان من أعضاء جمعية « العربية الفتاة » السرية ، ففرّ إلى البادية ، فقبض عليه ، وحوكم في « عاليه » ونفذ به حكم الإعدام شنقاً في بيروت (١٣٣٤ هـ / ١٩١٦م) .

كان يجيد التركية والفرنسية ، وترجم عن الأولى رواية « فتح الأندلس ـ ط » للشاعر عبد الحق حامد . وله كتاب في « تاريخ الإسلام ـ خ » ثلاثة أجزاء ، وقصائد وخطب جديرة بالجمع والطبع] انظر الأعلام ج ٤ ص ٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مرج ابن عامر ثم في بيسان ومجدل طبرية ، وفي سنة ١٩١٨ م عين مديراً لزراعة الجيش في دمشق ، وما لبث أن أصبح بعد قيام الحكومة العربية في سورية ، إثر انسحاب الجيش العثماني منها ، مديراً للزراعة في الحكومة المذكورة ، وكان ذلك في أواخر سنة ١٩١٨ م ، ومن هذا التاريخ بدأت حياة الفقيد في المناصب الحكومية التي تولاها بعدئذٍ .

هذا ولم يكتف الفقيد بما تعلمه في المدارس وما تلقاه عن أخيه الشهيد ، بل ثابر على الدرس والبحث العلمي ، فأتقن العربية حق الإتقان ، كما أتقن الفرنسية والتركية وألم بالإنكليزية ، وأخذ يكتب ويحاضر ويؤلف حتى غدا العالم الذي يشار إليه بالبنان .

المناصب التي تقلدها الفقيد

تقلب الفقيد في مناصب الدولة العالية في سورية ومنح أعلى الأوسمة فيها ، وتسلم منصب الوزارة أربع مرات ، فكان على التتابع منذ عام ١٩١٨ م حتى ربيع عام ١٩٥٤ م يوم أحيل إلى المعاش ، في المناصب التالية :

مدير الزراعة والحراج (١٩١٨ — ١٩٢٣) .

مدير أملاك الدولة (١٩٢٣ — ١٩٣٤) .

مدير الاقتصاد الوطني (١٩٣٥) .

وزير المعارف (١٩٣٦) وكان أحد أعضاء الوفد السوري المفاوض لوضع معاهدة بين سورية وفرنسة .

محافظ حلب (١٩٣٧ — ١٩٣٩) .

وزير المالية ، ثم وزير دولة للمالية والاقتصاد الوطني (١٩٤٣) .

محافظ اللاذقية (١٩٤٣ — ١٩٤٥) .

الأمين العام لرآسة مجلس الوزراء (١٩٤٥) .

محافظ حلب (١٩٤٦ — ١٩٤٧) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

محافظ اللاذقية (١٩٤٨ — ١٩٤٩) .

وزير العدل (١٩٤٩) .

وزير سورية المفوض في مصر (١٩٥١ — ١٩٥٤) وكان أول سفير لسورية في مصر بعد أن رفع التمثيل السياسي بين الدولتين إلى درجة سفارة ، وقد منحته الحكومة المصرية الوشاح الأكبر مع الرصيعة من وسام النيل .

وكان له في المناصب الحكومية التي تولاها مآثر عمرانية كثيرة ، منها العمل على توزيع أملاك الدولة وهي مئات من القرى على الفلاحين تشجيعاً للملكيات الصغيرة ، وذلك عندما كان مديراً لأملاك الدولة ، ومنها تشييد « دار الكتب الوطنية في حلب » و « دار الكتب الوطنية في اللاذقيـــة » عندما كان فيها محافظاً .

الفقيد العالم المجمعي

أخذ الفقيد يكتب وينشر في أهم الجرائد والمجلات العربية مقالات وبحوثاً يعدها العارفون من خالص الأدب الرفيع ، ولكن ما لبث أن طغت على كتاباته الناحية العلمية واللغوية فأصبح في عداد العلماء وكبار المفكرين .

وفي سنة ١٩٢٦ م انتخب الفقيد عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وانتخب سنة ١٩٤٨ م عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية في مصر ، ثم انتخب سنة ١٩٥٤ م عضواً عاملاً فيه ، وفي سنة ١٩٦١ م انتخبه المجمع العلمي العراقي عضواً مراسلاً . وانتخب غير مرة عضواً في مجلس المعارف الأعلى في سورية ، وعين عضواً في مجلس إدارة المتاحف والآثار ، كما عين عضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في القاهرة وفي دمشق ، ومثّل جامعة الدول العربية ثلاث مرات في حلقة الدراسات الإجتماعية ، وفي سنة ١٩٥٣ م انتخبه مجلس جامعة الدول العربية رئيساً للجنة المواصلات الدائمة في الجامعة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٦ م انتخب نائبـــاً لرئيس المجمع العلمي العربي ، وبتاريخ ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٩ م أجمع أعضاء المجمع المذكور على انتخابه رئيساً له لمدة أربع سنوات خلفاً للرئيس الراحل خليل مردم بك ، وقد جددوا انتخابه لمدة أربع سنوات أخرى سنة ١٩٦٣ م ، كما جددوا انتخابه مرة ثالثة سنة ١٩٦٧ م .

وبتاريخ ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٦ م منحته الجمهورية العربيـة السورية جائزة الدولة التقديرية لعام ١٩٦٥ ، فكان أول من يمنح هـــذه الجائزة منهـا .

وفي اجتماع عقدته اللجنة التنفيذية لدائرة المعارف الإسلامية في لندن بتاريخ ١ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٤ م ، قررت اللجنة انتخابه عضواً مشاركاً ، وأتاه رجاء بالقبول فقبل .

منزلة الفقيد العلمية واللغوية

أجمع أرباب الزراعة في بلاد الشام على أن الفقيد الأمير مصطفى الشهابي يعد أكبر عالم زراعي في العصر الحديث ، أما من حيث المصطلحات الزراعية ، فقد قال الدكتور أمين المعلوف صاحب معجم الحيوان (١) : « لا يختلف اثنان في أن الأمير هو علامة العربية الأوحد في المصطلحات الزراعية وأنه فيها نسيج وحده » ، ذلك أنه قضى سنين عديدة من حياته يدرس نباتات الشام الزراعية وحشراته وحيواناته الأهلية وجويّاته واقتصادياته ومياهه ، فاستطاع أن يطبق العلوم الزراعية الحديثة في بلاد الشام ، سواء في أعماله الحكومية أم في مؤلفاته الزراعية ، وكان لزاماً عليه ، في نقل علوم

(١) انظر مجلة المقتطف المصرية عدد كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الزراعة الحديثة إلى العربية ، أن يتحرى أصلح الألفاظ في المعاجم العربية وفي كتب النباتات والحيوان والزراعة القديمة ، وقد قام بهذا العمل المضني خير قيام ، وحقق به عدداً كبيراً من المصطلحات العربية وجعلها أمام الكلم الفرنسية .

أما النباتات الزراعية التي كانت العرب تجهلها فقد وضع الفقيد لها أسماء عربيّة أو معربة بطريقته الخاصة ، وهي الرجوع إلى أصول الأسماء العلمية الدالة على هذه النباتات ، ثم ترجمة تلك الأسماء بمعانيها الأصلية أو تعريبها إذا كانت تدل على أعلام ، وهكذا تمكن الفقيد من إضافة مئات الألفاظ إلى اللغة العربية .

وقد نشر الفقيد كثيراً من المصطلحات التي وضعها في هذه المجلة وفي مجلة المقتطف المصرية ، ثم أودع معظمها كتاباً أطلق عليه اسم « معجم الألفاظ الزراعية » ، وقد طبع بدمشق سنة ١٩٤٣ م أولى طبعاته ، وداوم الفقيد على وضع المصطلحات أو تحقيقها فهيأ لمعجمه المذكور نحواً من ألف مادة جديدة أثبتها في طبعته الثانية التي ظهرت في القاهرة سنة ١٩٥٧ م بعد أن ساعدت الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية في نشرها .

وشارك فقيدنا الكبير مجمع اللغة العربية في مصر بتحقيق عدد كبير من المصطلحات العلمية ، وأصبح معروفاً في جميع الأقطار العربية بأنه أحد العلماء الذين أغنوا العربية بالمصطلحات العلمية ، وأنه من أوسعهم إطلاعاً على طرائق وضع المصطلحات العربية ، وقد دل على ذلك كتابه المسمى « المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث » وهو كتاب يضم عشر محاضرات ألقاها الفقيد في أوائل سنة ١٩٥٥ م على طلاب معهد البحوث والدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ؛ ويعد هذا الكتاب فريداً في بابه من حيث رسم طرق وضع المصطلحات وبيان تطور اللغة العربية لاستيعاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العلوم القديمة والحديثة ، وقد طبعه المعهد المذكور في القاهرة فجاء في ١٣٥ صفحة ، وأعاد المجمع العلمي العربي بدمشق طبعه سنة ١٩٦٥ م ،فجاءت طبعته الثانية المزيدة في ٢٠٩ صفحة ، وقد اعترف كثير من أعضاء المجامع العلمية واللغوية وأساتذة الجامعات وكبار الأدباء بأن هذا الكتاب الفريد ، هو أنصع دليل يرشد العلماء العرب إلى أصلح السبل التي يجب أن تتبع في وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية .

رسل مما قيل في مؤلفات الفقيد

أ — كان فقيدنا الكبير أهدى نسخة من معجم الألفاظ الزراعية إلى شاعر القطرين خليل مطران ، وكان الخليل يومئذ أميناً للنقابة الزراعية في مصر فشكره برسالة مؤرخة في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥ م جاء فيها :

يا أميراً أهدى إلى لغة الضاد كنوزاً من علمه وبيانه
ذلك المعجم الزراعي قد كان رجاء حققته في أوانه
عمل لا يكاد يقضيه إلا مجمع بالكثير من أعوانه
دمت ذخراً له مآثره في نفع هذا الحمى وفي رفع شانه

ب — وأثنى الفقيد مرة على محاضرة ألقاها الأمير شكيب أرسلان في ردهة مجمع دمشق ، فكتب أمير البيان رسالة شكر بتاريخ ٢٧ من رمضان سنة ١٣٥١ هـ جاء فيها :

« ... وما أريد الآن أن أتواضع لأزداد تمدحاً ، ولا أريد أن أقابل ثناء بثناء ، ولكن أقول مقالة معترف بالحقائق راثر للوقائع أين المُثْنَى عليه من المُثْني في تحقيقاته العلمية ، وتدقيقاته التاريخية ، وملاحظاته الأدبية ، وتقريراته الزراعية ، وبحاره الزاخرة ، إنه لأمير العلماء حقاً وعالم الأمراء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فعلاً . وإني مع شيخوختي هذه لراضٍ أن أنضوي تحت لوائه ، كما انضوي شيوخ الصحابة تحت لواء أسامة ..) .

ج — وكتب الدكتور منصور فهمي الأمين العام السابق لمجمع اللغة العربية في القاهرة ، رسالة إلى فقيدنا بتاريخ ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩ م جاء فيها :

« .. وإني لا أشك أن إخواننا في المجمع سيجدون أكبر الفوائد في بحوثكم القيمة وتوجيهاتكم الطيبة ، والله نسأل أن يمد في نشاطكم المبارك لخدمة العلم .

وأما اقتراحكم الخاص بالنسب إلى كلمة كيمياء فقد استعرضت لجنة الأصول ما كتبتموه في شأنها ، وما جاء في بحث الأستاذ الكرملي وما نصت عليه المعجمات القديمة ، ورأت أنه يجوز في النسب إليها إثبات الهمزة وقلبها واواً . وترى أن القلب أولى . . [1] »

د — وكتب العلامة الدكتور أحمد زكي عند صدور الطبعة الثانية من معجم الفقيد الزراعي ، مقالاً بعنوان « مجمع دمشق ومجمع القاهرة ، عالم من دمشق جدير بالتنويه[2] » ما يلي :

« وعالم قح ، هو أحد علمائهم ، وهو في علم الحياة خاصة أحسبه أوسع علمائهم علماً باللغة ، وهو على كل حال عالم فرد فذ في ذاته ، غير مقارن بغيره ولا منسوب ، فهذا العالم الأحيائي جمع وحده ، وصنع وحده ، شيئاً

(١) ضاع بحث الفقيد عن النسب إلى كيمياء في ديوان مجمع اللغة العربية في القاهرة على ما يظهر ، فكتب الديوان إليه يرجوه نسخة من بحثه ، وكان أن عثر عليه فبعث به إلى مجمع مصر ، ورأت مجلتنا نشره تعميماً لفائدته فطلبت من الفقيد نسخة منه فأرسله إليها وكان آخر ما نشره ، وتم النشر في هذا العدد بعد شهرين من وفاته رحمه الله .

(٢) انظر جريدة الشعب الصادرة في القاهرة بتاريخ ٨ آذار (مارس) ١٩٥٨ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كثيراً من مصطلحات علم الحياة ، جمعها في معجم ، وصفه بأنه معجم صغير ، فبلغ نحواً من ثمانمائة صفحة من القطع غير الصغير . فهذا هو أخونا الأمير مصطفى الشهابي عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة ونائب رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق . . »

هـ ــ وكتب الأديب الكبير الراحل الأستاذ عباس محمود العقاد بحثاً طويلاً إثر صدور « معجم المصطلحات الحراجية » الذي طبعه المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٦٢ م ، بعنوان « كتاب الشهر[1] ومما جاء فيه :

« ... وليس هذا المعجم ، في الواقع ، بالجديد بالنسبة إلى العالم الباحث مؤلفه القدير ، سواء في الكثير من مفرداته ، أو في الطريقة العلمية التي يتوخاها عند نقل المصطلحات أو تعريبها أو وضعها بما هو معروف عنه من سعة المعرفة بعلمه ، وفرط الغيرة على لغته ، وحسن التصرف في أدائه لعبارته ، وقد اطلعنا على هذه الطريقة في معجمه السابق للألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية ، ووقفنا على شيء من تفصيلاتها التي يعرضها للمناقشة في جلسات المجمع اللغوي ، وهو علم من أعلامه النابهين الذين يمحضون له أكبر العون في علم النبات خاصة ، وفي غيره من العلوم على الاجمال » .

ومضى المرحوم الأستاذ العقاد في بحثه إلى أن قال : « وليس لنا أن نحكم على المعجم من ناحيته العلمية النباتية ، وإن كنا نعرف رجاحة المؤلف الكبير في علمه من متابعة المناقشات التي تجري بينه وبين فطاحل علماء النبات خبراء هذا العلم في لجان مجلس المجمع أو في جلسات مؤتمراته العامة ، ولكننا من الناحية اللغوية ــ نلمس دلائل الكفاية التي يتطلبها تأليف أمثال

(١) انظر مجلة « قافلة الزيت » التي تصدر في الظهران ع ٣ المجلد ١١ ربيع الأول سنة ١٣٨٣ هـ وتموز (يوليو) ــ آب (أغسطس) ١٩٦٣ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه المعجمات ، وتزداد الحاجة إليها كما ذكرنا في مستهل هذا المقال عاماً بعد عام . . . وهي كفاية تمت للمؤلف الكبير بالاطلاع والمثابرة على المراجعة في أبواب من الثقافة لا تتصل جميعاً بثقافة فنه . ولا شك أنه اطلاع يسنده الحب والرغبة إلى جانب الفهم والدراية ، تلك الرغبة التي استمدها من قدوة أخيه (عارف الشهابي) شهيد القضية العربية ، الذي قال في إهدائه معجم الألفاظ الزراعية أنه : « علمني أن أحب لغتنا الضادية ، وأن أبذل جهدي في خدمتهـــا » .

الفقيد والقومية العربية

كان فقيدنا من أفراد الرعيل الأول الذين عملوا على استقلال الأقطار العربية ، وقد عمل على ذلك في بعض الجمعيات العربية السرية والعلنية التي قامت منذ أوائل هذا القرن في كل من دمشق والآستانة ، وقد أخذ المبادىء الوطنية والاندفاع في بذل المستطاع من أجل استقلال بلاد العرب عن أخيه الشهيد الأمير عارف الشهابي ، الذي بذل نفسه في سبيلها ، لهذا نشأ فقيدنا من أشد أقرانه تعصباً لقوميته ، على أن طبيعته ونفسيته جعلته في الأحداث الانقلابية والثورات السياسية يتبع سبل الحكمة دائماً ، وتبعاً لطبيعته هذه ، أصبح أيام انتداب فرنسة على سورية ولبنان ، صلة للتفاهم بين إخوانه الوطنيين وبين الحكام الفرنسيين ، وكان ينصح هؤلاء الحكام بالإقلاع عن سياسة العنف وبالتخلي لأبناء البلدين عن المصالح التي يسيطرون عليها ، وبأن يجعلوا التفاهم قائماً على أساس الاستقلال ، حتى أنه لم يتأخر عن نصحهم بأن مصالح فرنسة نفسها لا يمكن تأمينها إلا باتباع هذه السياسة .

على أن الفقيد كان صريحاً في إعلان عدائه للاستعمار وكرهه للمستعمرين ، وهو يرى أن معظم الحروب الحديثة من جناياتهم ، وقد ألف « كتـــاب الاستعمار » لدحض نظرياتهم وبيان أضرار الاستعمار في المجتمع البشري .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وللفقيد رأي خاص في « من هو العربي » ، فكان يقول : « إن العربي هو من تكلم بالعربية وأراد أن يكون عربياً » مما دعا لقيام جدل بينه وبين رواد آخرين للقومية العربية .

وآراء الفقيد في القومية العربية وتاريخها وقوامها ومراميها ، مبثوثة في محاضراته في معهد البحوث والدراسات العربية العليا التابع لجامعة الدول العربية ، وقد طبعها المعهد نفسه سنة ١٩٥٩ م .

وكان الفقيد من أكبر قدماء الدعاة إلى تأسيس جامعة للدول العربية ، على أن يُسار بتلك الدول نحو الاتحاد فالوحدة تدريجياً ، وكان يجهر برأيه هذا ، كما دونه في مقال نشرته له جريدة « الأهرام » المصرية ، قبل أن تؤسس « جامعة الدول العربية » بنحو من خمس عشرة سنة .

وكان من آراء الفقيد ضرورة حصر العرب جهودهم في نطاق بلادهم خدمة للإنسانية كلها ، ولا يجوز في رأيه تفكيك عرى القومية العربية بالدعوة إلى مبادئ أو مذاهب مستوردة ، حتى أن الدعوة إلى ما يسمى بـ « الإنسانية الشاملة » كان يراها لا تتفق ومصلحة الأمة العربية في أوضاعها المعاصرة ، لأن النظر إلى العالم نظرة إنسانية يليق بأبناء الشعوب المستقلة القوية ، لا بأبناء الشعوب التي قصاراها الدفاع عن كيانها واستقلالها ، لا سيما وأن الجمهرة من الغربيين الأقوياء يربون أبناءهم ويسيرون في معاملة بعضهم لبعض ، وفي معاملتهم للشعوب الضعيفة ، على مبادئ القومية المتطرفة ، وعلى قواعد الأثرة والاستعمار .

هذا وكان فقيدنا الكبير من المؤمنين بالعلاقة الوثيقة بين القومية العربية والدين الإسلامي ، وبأن هذه القومية مدينة للإسلام كثيراً ، ولا سيما في الخوالي من العصور ، ولكنه مع هذا الإيمان كان يرى أن النهضة العربية الحديثة يجب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أن تؤسس على مبادى قومية يحمل أعباءها المسلمون والمسيحيون من العرب والمستعربين على السواء .

والقومية العربية في رأي الفقيد ، كما أورده ملخصاً في خاتمة كتابه عن « القومية العربية » : [ليست فلسفة قومية ضيقة ، ولا مذهباً محدوداً قوامه الأثرة والتعصب أو البغضاء ، بل هي فلسفة اجتماعية مثالية بنّاءة تقدمية ، تدعو كل عربي إلى محبة أمته العربية ووطنه العربي ، وإلى الاعتزاز بماضي هذه الأمة ، وإلى العمل التقدمي لحاضرها ومستقبلها ، كما تدعو إلى محبة الإنسانية ، وإلى خـــير البشرية ، وإلى حق كل شعب على الأرض بتقرير مصيره] .

صفات الفقيد وخُلُقه

كان فقيدنا طويل القـامة ممتلىء الجسم ، أشقر الشعر ، أشهل العينين كبيرهما ، قصير الرأس عريض الجبهة ، دقيق العظم ، قوي العضل ، مستقيم الأنف ، حاد النظر .

وكان رحمه الله قوي الإرادة ، عالي الهمة ، دقيق الحس ، واسع الصدر ، طيب القلب ، رقيق الشعور ، صريح الكلام ، نافذ البصر ، وقد ورث صفات الحاكم والرئيس عن أجداده ، فكان معدوداً من أصلح الحكام عندما تولي محافظة حلب ومحافظة اللاذقية ، وعندما كان وزيراً في دمشق .

وقد عرف الفقيد بالإباء والشمم ، واشتهر بالترفع عن الدنايا وسفاسف الأمور ، وكان جاهلوه يظنون فيه كبرياء ، أما الذين يخالطونه فكانوا سرعان ما يحكمون بأنه وديع متواضع تواضع العلماء ، ولكنه مع وداعته شديد الشكيمة لا تأخذه هوادة فيمن يزيغون عن الحق ، أو يجانبون الاستقامة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كما اشتهر فقيدنا الكريم بطهارة النفس والجيب ، وبازدراء المال والترفع عن جمعه ، فقد لهذه الصفات من أشرف رجال الدولة وأزهدهم ، ولقد قضى أكثر من ثلاثين سنة في أعلى مناصب الدولة يعيش براتبه وبقليل مما ورثه عن آله ، عيشة متوسطي الحال ، واكتهل وليس له من الملك إلا الدار التي كان يسكنها في جبل قاسيون ، جبل دمشق ، المدينة التي أحبها وأحبته وأوصى أن يدفن في ترابها .

ونزاهة الفقيد المجردة ، مضافة إلى علمه الواسع وإرادته القوية ، جعلته مرفوع الرأس ، مهيب الجانب ، محترم الرأي ، في جميع البيئات والمجتمعات ، ومكنته من إقامة قسطاس العدل ومن تطبيق أحكام القانون على الغني والفقير وعلى الوجيه والوضيع على السواء ، كما مكنته أيضاً من القيام بأعمال عمرانية وخيرية كثيرة ، ما عرفها أحد إلا وذكره بكل خير وأثنى عليه الثناء العريض .

★ ★ ★

دمشق تبكي الفقيد وتمشي وراء نعشه

استيقظت دمشق صباح نعي إليها الفقيد الكبير ، باكية أخلاقه السامية وعلمه الغزير وغيرته على العربية ، وأخذ كبار القوم من العلماء والمفكرين ورجال الدولة يتوافدون منذ الصباح الباكر على دار الفقيد يقدمون العزاء لأسرته وزملائه أعضاء مجمع دمشق .

وما حان وقت الظهر ، إلا ومشت دمشق بمفكريها وعلمائها وراء نعش الفقيد بموكب مهيب تشيعه إلى مثواه الأخير في جبل قاسيون .

وعند القبر الذي أوصى بأن يضم رفاته ، وقفتْ أمام الجمع الحاشد أرثيه باكياً ، وجادت السماء على ثراه ، وهو يوارى فيه ، بوابل غزير ، كان بشرى للمحزونين بغفران للفقيد وجنات وتُهُر ، مع الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان مما قلته في رثائه رحمه الله :

[نقف الساعة خاشعين لنواري الثرى ، علماً من أعلام الوطن العربي . نقف لنُوْدع التراب بطلاً من أبطال الذود عن الورد الذي يجمع أمة ربيعة وقحطان . نقف لنغمد سيفاً من بقيـــة سيوف ما كلّت في الدفاع عن لغة القرآن .

لقد ولد فقيدنا الكبير مصطفى الشهابي في فجر النهضة العربية الحديثة ، وشارك في حمل لواء من أكبر ألويتها ، ثم كان من كبار مؤرخي هـذه النهضة المطلعين على أسرارها ووسائلها .

وشارك الفقيد العظيم ، في الكفاح من أجل استقلال الأمة العربية . وعمل جاهداً مع العاملين على إقامة بناء متين لدولتنا الفتية ، وكان في طليعة رجال الإدارة فيها مذ قامت في هـذا القطر العربي ، الذي حمل مشعل النهضة العربية ، دولة .

وجاهد الفقيد في سبيل إعلاء كلمة العربية ، وقضى وهو مازال في ساحة الجهاد التي هيأته الأقدار لتولي القيادة فيها ، يذود عن حمى الفصحى ، ويدعم بما أُوتي من علم وعزيمة ، العاملين في خدمتها . لقد سقط الفقيد شهيداً في ميدانه ، بعد أن ختم بحثاً من أبحاثه اللغوية القيمة ، لينشر في العدد القادم من مجلة مجمع دمشق الخالد بأمثاله من أعلام العربية ، خلود دمشق ، قلب العروبة النابض ، رغم العِدى وصروف الزمن .

لقد كان فقيد العرب الكبير ، عالماً غزير المعرفة والاطلاع فيما اختص به من علوم اللغة والنبات ، واسع الثقافة ، مطبوعاً على الأدب ، يتحلى بأسمى ما يتحلى به العلماء من أخلاق ، فكان إذا تكلم فهو العالم الثقة ، وإذا رأى الحق رضخ له ، رضوخ من يؤمن به ولا يعتـــد بسواه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد كان كرسيّ الفقيد في الوزارات والإدارات التي تولاها ، مهيباً يحف به الكثير من الجلال والوقار ، ويفرض على من يقف أمامه الاحترام والتقدير . كما كان كرسيّه في مجمع دمشق متميزاً بطابع الجهد المضني في خدمة اللغة ، والدأب المتواصل في الدفاع عن حماها . بينما كان كرسيّه في مجمع القاهرة مرموق المكانة تتطلع إليه الأنظار كلما حزب أمر من أمور المصطلحات العلمية ، أو اختلف القوم في قاعدة من القواعد التي ترضاها أصول اللغة .

لقد كان فقيدنا الكبير هذا كلّه ، وله مع هذا كلّه ، صدر ينطوي على قلب يزخر بالحب والعطف على الآخرين . كان فقيدنا إنساناً في مشاعره وتواضعه ، وكان رجلاً في حزمه وإدارته . وكان أميراً في أخلاقه واستقامته . فضلاً عن أمارته بالنسب .

إني وإن كنت أبكي الفقيد استاذاً جليلاً أدين له بجوانب من المعرفة أفخر بها ، كما أبكيه صديقاً كبيراً أدين له بالوفاء والتقدير ، فأنا أبكيه أيضاً وباسم مجمع اللغة العربية ، زميلاً فذاً كانت له فيه الصدارة والرياسة . وإني لأتقبل باسم المجمع الأسيف ، من هذا الجمع الكريم ، جميل عزائه ، شاكراً له نبيل مشاعره ، مستمطراً شآبيب الرحمة ، وها قد هطلت بإذن الله ، على جدث ضم رفات الفقيد الكبير ، سائلاً الله أن يضوّع بالمسك جوانبه ، وأن يعطر بالشذى الفوّاح أجواءه .

وإنا لله وإنا إليه راجعون] .

★ ★ ★

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الفقيد يوارى الثرى في دمشق

وقبيل عصر يوم الثلاثاء الواقع في ١٦ صفر سنة ١٣٨٨ هـ الموافق لـ ١٤ أيار (مايو) سنة ١٩٦٨ م ، وُوري الفقيد الشهابيّ ترابه الموعود في بقعة من جبل قاسيون تطل على دمشق ، والواقف عليها يرى ما كان قلب فقيدنا الكبير يخفق كلما رآه ، مسجلاً خفقاته في « الشذرات » قائلاً : [والتفتُ إلى دمشق ، فاذا بها غرقى في خضم أخضر كأنها ياقوتة في ثبير من الزمرد ، والجامع الأموي يبرز عظيماً جباراً بمآذنه الشاهقة وقبته العالية] .

وفي تلك البقعة من الأرض أقيم قبر للأمير الراحل كتب عليه ، بوصية منه ، بيت من الشعر من نظمه يقول فيه :

أمّ اللغات قضيتُ العمر أخدمها ... فهي الشفيعة في غفران زلاتي

اللّهم رحمتك نرجو ، وبك نستعين .

عدنان الخطيب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net